بقلم : احمد هاشم الشريف

من خلال اللوح الزجاجى الذى حددته فتحة النافذة ، القى نظرة يستكشف بها الخارج ،محاولا أن يعرف المسافة التى قطعتها العربة ، والمسافة الباقية من الطريق ، لكنه على ما يبدو اخفق فى هذه المحاولة ، وظل لبضعة ثوان لا يفكر فى شىء ، ولاينطق بحرف، ولا يقوم بأى عمل على الاطلاق .

كان يعتقد ان العقل قوة هائلة لا يستهان بها ،حتى لو احاطت بالانسان ظروف قاسية كالتى احاطت به فى الثلاثة ايام الماضية ، والآن يرى هذه القوة الهائلة تختل ، وتشل حركتها تماما ، امام احساسه بالخوف ولهفته على معرفة النتيجة ..

لم يكن يتوقع ان ما حدث فعلا يمكن ان يحدث بهذه الصورة ، وعلى هذا النحو المفاجىء ، خصوصا وان حديث السائق عن خبرته بالطريق ، يوحى للسامع بالاطمئنان ، كما انه لم يبدأ بعد فى ارتقاء المرتفع ،حيث مكان المستشفى .

وكان مبعث خوفه ولهفته أن اللفة التى تحملها زوجته . تتأثر بأقل حركة وينتقل التأثير بالتالى الى من بداخلها ، طفله المريض . وفى هذه الحالة ستكون النتيجة على حساب اعصابه . وقد ادرك من لحظات أن زوجته ذاهلة عن كل ما حولها ، حتى عن اللفة التى بين يديها ، ثم اكتشف أن ذهولها بدأ من ساعة ركوبها العربة ، وربما كان قبل ذلك بكثير .. ليس فى وسعه الآن أن يتذكر .. ان المباغتة فى مثل هذه الامور لها تأثير خطير ايضا ، لا يقل فى خطورته عن تأثير الهزة التى تعرضت لها العربة، والتى اذهلته ، تماما كزوجته ، عن كل ما حوله ، رؤية منظر الطريق وسماع حديث السائق ، ومتابعة ما يجرى داخل العربة ..

كانت هناك سيدة اجنبية تصاحبها فى العربة ، ومن ساعة ركوبها وهو يحاول تجنبها ، ومع انه يتقن اللفة الفرنسية الا انه خشى من دخوله فى حديث معها تكتشف فيه اضطرابه ، ثم حكاية ابنه المريض ، والخوف من العدوى ، وفى امكانه الآن أن يرسم صورة لما سوف يحدث : مشادة بينها وبينه ، يتأزم بعدها الموقف ، لا يخفف من ثورتها محاولته لتهدئتها باثارة عاطفة الأمومة فى قلبها ، فهو يعرف هؤلاء الاجانب جيدا ، وتأكد من معرفته لهم بعد تجربته الاخيره فى مرض ابنه ، ولايستبعد منها ان تستغيث وتتوقف السيارة بعد ذلك ويحتج السائق عليه بنفس الحماس الذى يتحدث به عن خبرته الآن ، وربما يطرده هو وزوجته وابنه ويمضى بالسيدة الاجنبية الى قمة المرتفع .

وبدون مقدمات سمعها تقول للسائق:

« امامنا اكثر من ساعة .. سنقطع بقية المسافة فى اكثر من ساعة .. »

لقد تأكد الآن من ان كل شىء سيتم فجأة وبدون مقدمات ، بنفس الطريقة المباغتة التى اهتزت بها العربة . اشتد الحر فى الخارج فجأة مع ان الساعة تعدت الخامسة بعد الظهر تقريبا ، وبدت حقول البقول بزهورها البيضاء الصغيره وقد كستها صفرة خفيفة ، وكروم العنب المتخاذلة على اعراشها من بعيد تدور حول حدود المدينة خلف السياره ، وعندما اخذتها الدوخة نامت عند الافق واصبحت غير محدده ، والرمال تقبل نحوهما بسرعة مخيفة ، وتزحف مع الصخور لتحاصر الطريق وامام السياره كان المبنى الاصفر ، مبنى المستشفى يبدو على قمة المرتفع كشىء تافه لا يستحق الانتباه ، وفى اوقات اخرى يحس بتفاهته ويخجل من ذلك فيتوارى عن الانظار .

وفى الداخل لم يكن هناك تغيير يذكر، فلا الهزة المفاجئة ولا الحر الذى انتشر فى الخارج استطاعا ان يلفتا الانتباه . السائق استأنف السير ، واستانف معه حديثه الذى لا ينتهى عن براعته فى القيادة وشهرته فى حى القصبه بذلك ، ومعرفته التامة بالطريق وكيفية صعود المرتفع حتى قمته .

والسيدة الاجنبية تتظاهر بانها تتأمل الطريق وهى فى الحقيقة تراقب اللفة وتراقب ذهول زوجته عنها ، وبعد قليل ستدرك اضطراب حركاته وتقرأ المخاوف فى عينيه . ويتحقق بالفعل ما تخيله من لحظات .

ان المرض هاجم ابنه فجأة ايضاوعلى غير انتظار ، ومن تأمله لذلك اصبح يرجح انه كان يستعد فى الخفاء ، ويضع الخطط ويرتب النتائج : فى اليوم الاول من ايام الاصابة امتنع الطفل كلية عن تناول الطعام ، وعندما حاول ان يتحدى المرض تقيأ كل ما تناوله ، وامس بدات حرارته ترتفع واعراض المرض تظهر عليه بشكل واضح ، فترات يتعرض فيها لرعشة قوية تصطك معها اسنانه ، تنتهى لتعود من جديد . وفكر فى ان يحمل ابنه الى اقرب طبيب ، طبيب أجنبى اشتهر بعدائه للوطنيين ، ونفوره من منظرهم ، ومع ذلك لماذا لا يجرب صدق هذه الشائعة او كذبها ، لماذا يتردد فى طرق اى باب وهو فى هذه الأزمة ؟

نصحه اصدقاؤه باختصار الوقت وتجنب الاحراج ، والذهاب فورا الى المستشفى الحكومى المنعزلة خارج المدينة ، لكنه كابر واصر على أن يتوجه بطفله الى الطبيب الاجنبى مساء أمس ، كانت زوجته وصلت الى حالة الذهول التام عن كل ما حولها ، والطفل هدا اخيرا وارتخت اعضاؤه كانما ادرك عبث التحدى ومقاومة المرض ، وبدا واضحا انه دخل فى مرحلة الخطر . ولهفة الأب كثيرا ما تخرجه عن جادة الصواب وتدفعه الى ارتكاب الحماقات . ومهما كان مخطئا فى تقدير الموقف ، ومتعديا لحدوده ، فهو لايستحق الطرد من العيادة مع ابنه المريض .

بدا له الأمر فظيعا ومؤلما فى البداية ، لكنه استسلم للامر الواقع وعاد فى هدوء الى بيته ، نادما على مكابرته .

وفى صباح هذا اليوم فكر فى تنفيذ نصيحة أصدقائه ، بعد مضى الوقت وتطور حالة الطفل من سيء الى اسوا ، لم يجد فى نفسه القدرة على مواجهة الموقف ، كاديسقط وهويركب السيارة، ولم يلحظ السيدة الاجنبية وهى تركب مع زوجته ، لم يتنبه اليها الا هو ينظر عفوا الى اللفة ، ثم تطورت الأمور بسرعة بعد ذلك ، ولم يعد فى وسعه أن يكتم المه بعد الآن ، وقوة احتماله مهما كانت كبيرة الا انها محدودة ، وفى نطاق الانسان العادى قد تكون مثل هذه التجربة سهلة ، عندما تصادفه مشكلة، تؤرقه وتضنى تفكيره . لكن الحال يختلف اذا مرت نفس التجربة بأب ، فى مثل ظروفه . صوت القيء المنطلق من جوف الصغير يهدم أعصابه ، الارتفاع فى درجة الحرارة يضاعف من حرارته ، الرعشة التى تسرى فى جسم الصغير تنتقل اليه وتهز كيانه . وأمام هذا كله لم يجد بدا من الرضوخ لفكرة اصدقائه وضرورة تنفيذها فى الحال . بعد دقائق كانت السيارة الاجرة تنطلق بهم ، ومعهم هذه السيدة الاجنبية خارج مدينه الجزائر

وسمعها تتحدث للمرة الثانية مع السائق :

« أعتقد اننا سنقطع بقية المسافة فى أقل من ساعه .. أعتقد اننا لن نتأخر .. لا أحد يعرف وجهتها ولا السبب الذى يدفعها الى ان تقصد هذا المكان ، فى مثل هذه الظروف وتتحمل المشاق التى هى فى غنى عنها ، ومع أن فى امكانه التفاهم معها بلغتها الا أنه لم يفكر فى تحيتها أو مجرد الرد عليها أن هى بدات بالتحية . أما الدخول فى حديث معها فهو فى نظره سذاجة لا حد لها ، ان تجربة الطبيب الاجنبى ليست بعيدة ولا يوجد ما يمنع من تكرارها . ان اختلفت صورتها عن الاولى فالنتيجة واحدة ومعروفة .

القى نظرة سريعة على وجهها ، فاكتشف انصرافها الى تأمل اللفة ، والاغطية الثقيلة التى تحيط بها . كانت حرارة الجوقد تسللت الى داخل العربة، وحولت اللفة الى جحيم لايطاق ، وفى المرة الثانية راى فى عينيها قلقا خفيا ، اتضح مع طول التأمل ، وتكشف له عن نتيجة غريبة ، انه نفس القلق الذى يحس به ، وان كان لا يعرف مصدر قلقها ولا يستطيع التكهن به الآن .

هل يمكن أن تكون قلقه على طفله من الاغطية الثقيلة والجو الخانق الذى يملأ العربة ؟ والا فما سرهذا الاهتمام الكبير منها بتأمل اللفة ؟ وهل من المعقول أن تكون عندها عاطفة الامومة مثل زوجته ؟ تسهر مع طفلها المريض وتتحدى المرض ثم تصاب فى النهاية بذهول .

وفى الخارج كانت حقول البقول واعراش العنب قد اختفت تماما ولكن الصخور كانت قد ابتعدت عن طريق السيارة ومن الناحية الأخرى ، ناحية السيدة الاجنبية ، كان البحر يبدو فى فترات متقطعة ، وتهب نسمات خفيفة

ترطب من جو السيارة ، وسمعها للمرة الثالثة تقول للسائق بالفرنسية :

ـ انا شخصيا لا يهمنى التأخير ولكن يجب ان تسرع .. هناك ظروف تقتضى ان تسرع ..

وكان فى امكان الناظر المدقق ان يرى بوضوح منظر القمة ، والمبنى الاصفر فوقها ، وان يقيس مدى الارتفاع الذى يلوح له من بعيد ، وان كان يستهين به قطعا . وفى نفس الوقت يثير فى نفسه التساؤل عن سر موقع المستشفى فى هذا المكان وفوق هذا الموقع المرتفع بالذات ، هل هى العزلة المطلوبة للمرضى حتى لا تنتقل العدوى أم هو الجو الصحى الملائم فى الاماكن المرتفعة ، وكان يقدح ذهنه ويحاول تركيز افكاره فيما يقوله لهم عندما يصل الى هناك ، وكيف يقنعهم بضرورة السرعة فى مثل هذه الامور .

وعند ما جاءت الهزة الثانية لم يطبق على صدرة خوف المفاجأة الاولى تكاد يتأثر كثيرا بصوت العربة وهى تكاد تتفكك ، وتنفصل أجزاؤها عن بعضها ، امامه من الآن مطبات كثيرة ، لا اول لها ولا آخر ، وفى كل مطب منها تحدث الهزة ، وتتردى العربة فى جوفها كالصيد الضخم ، عندما يسقط فى حفرة اعدت له ، وفى كل هزة من الهزات القادمة لابد ان يتحمل مزيدا من المتاعب النفسية حقيقة ان وقع المفاجأة قد انتهى وراح مع الهزة الاولى والاعتياد على الصدمات يخفف من وقعها ، والمتاعب المتوالية تخلق فى النفس نوعا من الاستسلام ، جعله يتقبلها بهدوء ، ولكن احساسه بالقلق يتزايد باستمرار ، ان الصغير يحارب المرض الآن يقاومه فى براءة وسذاجة لا تتفق مع قوة المهاجم ونذالته وليس فى صالحه أن يتعرض لمثل هذه الهزات .

اما السيدة الاجنبية فقد بدا على وجهها انزعاج حقيقى وهى ترى اللفة تهتز بين يدى زوجته وينكشف امامها وجه الطفل ، ينطق بخطورة حالته ، والسائق استأنف المسير بنشاط اكثر من ذى قبل ، كأنما يريد أن يبعد الاذهان عن المطب الذى تردت العربة فيه منذ قليل ، وحديثه الممل عاد ايضا بنفس التدفق والاستمرار ، كله يدور عن خبرته بالطريق ودرايته بكل شبر فيه ، انه يعرف متى يستقيم ومتى ينحنى ومتى ينحرف ، ويعرف ايضا ان العربه قطعت اكثر من نصف الطريق ، وعليه الآن ان يدور دورة قصيرة ليحاذى المرتفع ، ثم يستأنف السير بجانبه ما يقرب من نصف ساعه وفى نهاية ذلك يكون قد وصل الى القمة ، الى المبنى الاصفر الذى بدأ يتضح الآن بصورة اكبر ويبدو مرتفعا اكثر من ذى قبل ، وتظهر نوافذه والنتوءات المحيطة بها . اما زوجته فقد جلست فى استسلام المتقبل للامر الواقع الذى اجهده طول المقاومة ، لقد تمددت المرض ثلاثة ايام كاملة وصمدت امامه فى عناء ، وتغلبت على صوت القىء وارتفاع درجة الحرارة والزيادة فى الرعشة ولكن ذلك كله لم يمنعها من مجاراة السيدة الاجنبية التى دخلت فى حديث معها .

وفى الخارج كانت الشمس فى طريقها

الى الغروب ، ملأ الخوف قلبها واعتصر ما فيه من نضرة واحمرار ، وخلف وراءه صفرة باهته ، أشعتها المرتعشة هى الأخرى كانت تزحف على الرمال ، انكفأت على وجهها بعد ان كانت منتصبة ، وبعد الغروب تتوارى خلف التلال فى انتظار رحمة الظل ومن خلال هذا الخوف راحت ترسم لكل شىء صورة مبالغ فيها ، أبعد ما تكون عن الحقيقة ، ربما كانت نفس الحالة التى رسم بها صورة السيدة الاجنبية ، ومع النسمات الباردة التى هبت من البحر بدأ الطفل يتحرك وينشط كأنما لم يمرض او يتعرض لمحنة قاسية كادت تودى بحياته ، وبدأت السيدة الاجنبية تعاون زوجته فى دفع الاغطية الثقيلة عنه حتى يستريح تماما وكانت عيناها تتألقان بمعانى الأمومة التى شك منذ قليل فى وجودها ، والطفل تمادى فى حركته ونشاطه . ومن خلال دهشته راح يراقب كل ذلك ، يراقب السيدة الاجنبية ويتذكر مخاوفه منها من ساعة ركوبها السيارة ، ويراقب الصغير الذى استعاد معها حركته العادية ، فى رضاء يشوبه القلق .

وجاءت الهزة الثالثة فجأة أيضا وعلى غير انتظار ، هزة قوية وخطيرة فى نفس الوقت لأن العربة بدأت ترتقى المرتفع فعلا وتدور الى الناحية الغربية فى مواجهة قرص الشمس ولم يكن يتصور أن زوجته الساكنة المتجمدة فى مكانها سوف تصاب بفزع كهذا ، فزع عظيم كأنما تتعرض الهزة للمرة الاولى وليس للمرة الثالثة . أطلقت صرخة توقف بعدها السائق تماما عن الحركة وانقطع عن الحديث وكاد الطفل يسقط من بين يديها . لولا ان تداركته السيدة الاجنبية خوفا عليه من الفزع الذى سيطر على حركات زوجته والصرخة التى انطلقت من فمها .

اما هو فقد احس بأن الهزة انتزعت منه ما بقى من مخاوفه وقلقه وبدا له ان الامور التى تحدث حوله عادية ، وليس فيها أى وجه للغرابة أو الدهشة والسائق استأنف السير هذه المرة بحذر بعد أن سمع الصرخة ، لكنه أقلع عن حديثه المستمر ولزم الصمت . ولم ينطق الا عندما سألته السيدة الاجنبية فأجاب باقتضاب :

ـ ربع ساعه على الاكثر .. سنصل الى القمه بعد ربع ساعه .

ولاح له مبنى المستشفى وقد زال عنه الاصفرار تقريبا وتشرب بلون رمادى ، لاح أكبر من ذى قبل ووضحت شقوق بسيطه فى جدرانه تساقط عنها الطلاء ، وعندما بدأ يفكر فى كلام السائق هتف على الفور :

ـ القمة .. القمة .. لقد وصلنا اليها وانتهينا من ذلك .